سلسلة أطروحات فكرية – ٦

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

معبد داروين

صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين

خالد بن عبدالرحمن الشايع

الطبعة الثانية
" نسخة منقحة "

الكاتب:

- خالد بن عبدالرحمن الشايع، باحث سعودي
- بكالوريوس لغة إنجليزية
- دبلوم التربية العام
- مهتم بملف الإلحاد وخاصة الإلحاد الجديد
- مع اهتمام خاص بنقد نظرية التطور
- له بحث (الأفكار الرئيسية من كتاب الإله وستيفن هوكينج)

اختصر فيه النقاط الرئيسية لكتاب جون لينكس:

God and Stephen Hawking: Whose Design Is It Anyway

- البريد الإلكتروني:

Khalidashaya@gmail.com

معبد داروين...

معبد داروين

صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين

خالد بن عبدالرحمن الشايع

ح مركز دلائل، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمركز دلائل

معبد داروين. / القسم العلمي بمركز دلائل - الرياض، ١٤٣٧هـ

١١٢ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٣-٥٢-٨١٧١-٦٠٣-٩٧٨

١- النشوء والارتقاء أ. العنوان

ديوي ٥٧٥ رقم الإيداع ١٤٣٧/٦١١٣

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض – المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

تصدير:

كثيرةٌ هي العقول التي أفرزتها البشرية لتقود توجهات ملايين الناس لسنوات وسنوات، وسواءً أكانت تلك القيادة في الخير أم الشر إلا أن العاقل يسعىٰ للنظر في أيٍ منها وعرضه علىٰ أوليات الفكر القويم والرأي السديد ليرىٰ مدىٰ اتساقها مع العقل والفطرة ومدىٰ خلوها من التناقض في ذاتها من عدمه.

ولذلك: كانت الحاجة الماسة لمثل هذه السلسة من (أطروحات فكرية)...

وفي هذا الكتاب نفسح المجال لنظرة جديدة في موضوع التطور قلما تطرق إليها أحد، حيث يخوض بنا الباحث الشاب أ. خالد بن عبدالرحمن الشايع في تاريخ أفكار التطور (أو التحول كما كانوا يسمونه) والتي كان ختامها داروين في العصر الحديث. إنها صفحات منسية بالفعل غفل عنها الكثيرون رغم أهميتها وتشكيلها لرؤية داروين للحياة وأصل الأنواع.. حيث تبدأ رحلتنا قبيل الثورة الفرنسية بقليل وظهور الكثير من المطبوعات التي حملت أفكاراً لأشخاص معروفين أو مجهولة المصدر كرد فعل عكسي علىٰ ما جنته الكنيسة النصرانية في أوروبا علىٰ الفكر والمفكرين والعلماء، ومروراً بجد داروين (إرازموس داروين) الذي استكمل حفيده بناء معبده بما ترك آثاره الهائلة إلىٰ اليوم.

مركز دلائل

***

بسم الله الرحمن الرحيم

«كنت مهتماً أن أسمعها من فيه؛ إن كان يعتبر عقيدته في تطور الأنواع حقيقة أم فرضية؟ فسألته: هل عثر علىٰ أي نوع تطور من آخر بواسطة التغيير في أي مكان ويسنده الدليل؟ كانت إجابته القاطعة: لا.. إذاً أنت نفسك ترىٰ أن عقيدة التطور فرضية؟ كانت إجابته الحاسمة: نعم».

من لقاء عالم النبات الألماني الشهير **روبرت كاسبري** مع **داروين** في ١٨٦٦م[1].

* * *

(1) Lönnig, W. (2011). The evolution of the long-necked giraffe: (Giraffa camelopardalis L.): What do we really know?: Testing the theories of gradualism, macromutation, and intelligent design. Münster: Verlagshaus Monsenstein und Vannerdat, I.

المحتويات:

المحتوى	الصفحة
❁ مقدمة	١٣
❁ الفصل الأول: القنصل الفرنسي بنوا دي مايه Benoit de Maillet .	١٥
❁ الفصل الثاني: فندق الفلاسفة	٢٥
❁ الفصل الثالث: إرازموس...معبد الطبيعة	٤٥
❁ الفصل الرابع: حديقة النباتات	٦١
❁ الفصل الخامس: في البدء كان داروين	٧٧
❁ الفصل السادس: بناء المعبد	٩٣
❁ الخاتمة	١٠٩
❁ المراجع الصوتية والمرئية	١١١
❁ المراجع	١١١

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع:
حديقة النباتات...

علىٰ ضفاف نهر السين في باريس أنشئت الحديقة الملكية، حيث زرعت فيها النباتات الدوائية للملك في القرن الثامن عشر، وقد ضمت الحديقة عبر تاريخها ألمع علماء النبات في فرنسا تحت قيادة **بوفون**. ثم تغير اسم الحديقة لاحقاً بعد الثورة علىٰ الملك إلىٰ (**حديقة النباتات**) وأنشأوا قريباً منها متحفاً للتاريخ الطبيعي.

وخلال فترة الاضطراب والإعدامات التي طالت الأثرياء والقساوسة كانت الأموال المصادرة ترسل إلىٰ الحديقة لإعداد صالات المحاضرات والمتاحف، وترميمها وتنسيقها. وفي تلك الفترة كان يقوم عليها ١٢ عالماً استغلوا كل ما يرسل إليهم من أحافير وعظام وحيوانات مما صودر من بيوت المحاكمين. لم يكتف الفرنسيون بذلك بل صادروا كل ما أمكنهم الحصول عليه من الدول الأوروبية الأخرىٰ، وبأوامر من **نابليون** جلبوا إلىٰ الحديقة غرائب الدنيا. فقد أحضروا فيلين كبيرين من هولندا كمثال علىٰ ذلك.

وهكذا بمرور الوقت تضخمت حديقة النباتات وهو ما يشير إلىٰ

أهميتها حتىٰ ضمت ٥٦ موظفاً يسكنون في شقق مخصصة لهم ولعائلاتهم، بل ربما وصل الأمر إلىٰ أقاربهم البعيدين، وتدريجياً أصبحت الحديقة عالماً مستقلاً ينبض بالحياة.

لكن الأمر بين العلماء الاثني عشر لم يكن بتلك الصورة الوردية. فقد كانت هناك حروب فكرية بينهم حول تطور الأنواع ومعنىٰ الحياة وأصلها. وفي ذلك الوقت لم تكن هناك مفردة تصف التطور Evolution كما نفهمه اليوم، ولكنهم اصطلحوا علىٰ تسميته بالتحول Tranformism، ومن جانب الإنجليز كانت هذه اللفظة معبرة، وهكذا استعاروا التسمية Tranformation حيث لم تكن وُلدت في بريطانيا بعد كلمة Evolution. كانت الفكرة الفرنسية الخطيرة تمس العقيدة النصرانية في الحط من قدر الإنسان ومد عمر الأرض ليتجاوز ٦٠٠٠ سنة، وكيف لا وهي فكرة إلحادية مناهضة للدين ووجودها صار يشكل خطراً هناك.

وخلف تلك الأسوار كان هناك ٣ أساتذة يحمل كل منهم نسخة عقلية وتصوراً مختلفاً عن الطبيعة: البروفيسور **جورج كوفييه**، والبروفيسور **جون بابتيست لامارك** والبروفيسور **اتيين جوفواغ سنتليغ**، ورغم ذلك كان يجمعهم هدف مشترك وهو فهم قوانين الطبيعة، ولكن لكل منهم رؤيته المختلفة عن صاحبيه.

كان **لامارك** في الخمسينات مع زوجته الثالثة وأبنائه الثمانية. وقد استقدمه **بوفون** بعد أن نال إعجابه وعينه كبروفيسور في علم الحشرات

والديدان والحيوانات المجهرية. أما **كوفييه** فكان في الحادية والثلاثين، وقد قدم من ألمانيا ونال الوظيفة بعد أن أثبت جدارته، ثم بعد قدومه شارك **جوفواغ** النُزل وقدَّما معاً بحوثاً مشتركة. انطلق **كوفييه** في بحوثه للنظر إلىٰ هياكل الحيوانات بدلاً من صفاتها الخارجية، ولحسن حظه فقد امتلأت الأرض بها. قضىٰ **كوفييه** معظم وقته في دراسة تراكيب هياكل الحيوانات حتىٰ كوَّن لنفسه مكتبة ومختبراً امتلأ بها.

في البداية كان عليه الحذر حيث أنه لم يصبح بروفيسوراً بعد، لكنه جاء ليحل محل بروفيسور في تشريح الحيوانات، وكانت المنافسة بين الدكاترة علىٰ أشدها، والكل يحاول تشويه صورة منافسيه. كان **كوفييه** دقيقاً يركز علىٰ الحقائق والأدلة علىٰ عكس **لامارك** الذي كان ينتقل بين علوم مختلفة كالكيمياء والنبات وهذا ما جعل **كوفييه** ينظر إليه كمنافس يحاول دس أنفه في كل مجال، وفوق ذلك بدا وكأنه لا يهتم إلا بآرائه الشخصية، مما زاد من حنق **كوفييه** عليه، والذي كان علىٰ عكسه مهندماً، ميالاً للحقائق ولا يؤمن بالتوقعات. وقد هاجم **بوفون** وأفكاره ووصفها بأنها لا يمكن إثباتها بل هي تعارض النظام الطبيعي.

انتمىٰ **كوفييه** و**لامارك** إلىٰ تيارين مختلفين، ومع ذلك كانت علاقتهما مستقرة نوعاً ما في بدايات القرن التاسع عشر، ولكن كان لا بد من الصدام بين المدرستين.

كانت الحديقة تعج بالدارسين من تخصصات مختلفة جاءوا ليتابعوا المحاضرات وينخرطوا في نقاشات حرة بعيداً عن رجال الدين، في أمور فلسفية عن الحياة والنشأة والخلق وغيرها مما قررته الكنيسة.

وفي محاضرة **للامارك** اجتمع فيها ٤٦ طالبًا قام **لامارك** بتفجير مفاجأة من العيار الثقيل، حيث صرح أن الحياة متغيرة وأن الأنواع جاء بعضها من بعض حيث تضمر وتنمو أعضاؤها حسب استخدامها لها. فهي تبدأ من الطبيعة وتعود إليها فلا حاجة لإله هنا. وصلت الأخبار إلىٰ **كوفييه** حيث بدأ الطلبة نقاشًا حول نظرية **لامارك**. ورغم أن **كوفييه** لم يكن متدينًا لكنه استاء من كلام صاحبه. ليس لتعارضه مع الإنجيل ولكن لأنه ليس مستنداً إلىٰ دليل. لكن **كوفييه** لم يشأ أن يتصارع مع **لامارك** علنًا، فلم يكن من الأدب صراع العلماء علىٰ الملأ.

وصل **لامارك** السابعة والخمسين من العمر وبدأ شبح الموت يرقبه. علم أنه لا يملك وقتًا طويلاً لينشر أفكاره قبل الموت، ولهذا نشر ثلاثة كتب بين عامي ١٨٠٠م و١٨٠٢م حاول فيها الانتصار لنظريته، حيث وضح فيها أن الحيوانات تغيرت طبقًا للطبيعة من حولها (تجتمع السوائل في جسم الحيوان في اتجاه معين ومع الوقت تتحول إلىٰ عضو كامل)، كما ذكر **لامارك** في أحد مؤلفاته مثاله الأشهر **للزرافة** حيث طالت رقبتها مع مرور الزمن لحاجتها للارتفاع إلىٰ

أوراق الشجر.

حين بدأ **لامارك** نشر كتبه بين ١٨٠١م و١٨٠٢م تضاعف عدد الطلاب الذين يفدون إلىٰ محاضراته. وتنوعت تخصصاتهم بين أطباء وصيادلة ومحامين. كان طرح **لامارك** متوازياً مع ما خلفته الثورة الفرنسية، فكل شيء يتجدد والجديد يحل محل القديم في تغير مستمر يطال كل شيء. وهذا ما جعل الإقبال عليه يزداد.. فالناس في ذلك الوقت تحديداً قد خرجوا من عبودية الكنيسة وهم يبحثون عن أي مصدر آخر يطمئنون إليه.

لم يلق الأساتذة لأفكار **لامارك** بالاً، لكن بالنسبة لطلابهم فقد كانت نقلة كبيرة ومفهوماً جديداً جذاباً حملوه معهم وجعلوا منه أساسالفهم طبيعة الحياة وتغيراتها، فالفكرة جديدة وثورية كثورة الشعب، فلا غرو أن يتبناها حتىٰ العامة في حديثهم عن التطور أو التحول كما كان اسمه آنذاك ونجم هذه الفكرة الأكثر سطوعاً هو **لامارك**.

وأما عن ثالثة الأثافي البروفيسور **جوفواغ سنتليغ** فقد كان بروفيسور الفقاريات في الحديقة. وقد بدأ حياته في الدراسة الدينية قبل أن يتحول إلىٰ الطب بعد الثورة، ثم عدل مساره قليلاً إلىٰ علم المعادن الذي وجد فيه ضالته. درس **جوفواغ** علىٰ القسيس **غينيه جوست أويه** القس الكاثوليكي الذي أودع السجن أيام الثورة كما حصل مع كثير من القساوسة. لكن تلميذه **جوفواغ** كان له رأي آخر،

فبالرغم من دعمه للثورة إلا أنه حاول إنقاذ أستاذه في جوف الليل من السجن بالسلم متخفياً في عمل بطولي، وهذا كان كافياً للتنبه له من القائمين علىٰ الحديقة.

فالمخاطرة التي قام بها خاصة أنها أيام الثورة جعلته يخاف علىٰ نفسه، فهرب إلىٰ بيت والديه بعيداً عن باريس. وعندما عاد إلىٰ باريس كانت المكافأة تنتظره من أستاذه **أويه** بعد عمله البطولي، حيث أحضره إلىٰ الحديقة مساعداً لأستاذ علم المعادن. وعندما أصبحت الحديقة متحفاً للتاريخ الطبيعي وجد **جوفواغ** نفسه أستاذاً لعلم الحيوان وهو لا يعرف عنه الكثير. كانت المهمة شاقة حيث اضطر إلىٰ تصنيف وترتيب الهياكل المختلفة التي تفد إلىٰ المتحف من أنحاء أوروبا.

في الرابعة والعشرين من عمره صدم **جوفواغ** بالتشابه التشريحي الوظيفي للهياكل المختلفة وقاده عقله إلىٰ أن (الطبيعة) عملت ضمن خطة واحدة لإنتاج سلالات مختلفة.

في ١٧٩٨م انطلق **نابليون** لاحتلال مصر وحمل معه المدافع والعلماء. ١٦٧ من العلماء من بينهم **جوفواغ** ليدرسوا تاريخ وطبيعة مصر الحيوانية والنباتية، فلابد أن الدهشة عقدت ألسنتهم وهم يرون الأهرام والنيل وسحر الشرق الذي يداعب الخيال الأوروبي. وفي عام ١٧٩٩م رجع **نابليون** إلىٰ فرنسا تاركاً الجيش خلفه بقيادة **كليبيغ**.

كان التنوع الحيواني والنباتي في مصر مذهلاً **لجوفواغ** ما بين طيور

وزواحف وحشرات وأسماك وأشياء لا يعرف حتىٰ أسماءها، أذهلته كما أذهلت قبله «**ديماييه**» وأثارت أسئلته كما فعلت مع **ديماييه**، ألا ترتبط هذه الكائنات مع بعضها؟ تعاون العلماء فيما بينهم وشاركوا بعضهم الدراسات ونتائجها، وكانت النقاشات لا تهدأ والأوراق والبحوث مستمرة في كل فن وعلم.

بدأ **جوفواغ** في جمع عينات لهذه الكائنات الحية وكلف بذلك السكان المحليين. فكان يجمع الحيوانات والأسماك وغيرها ويرتبها عنده. ولازالت هذه الرغبة تتعاظم لديه حتىٰ أصبح مهووساً بها، فاجتمع له صناديق عظيمة تحوي عينات من كل ما استطاع جمعه في هذه الأرض تدفعه الرغبة العارمة في البحث عن الرابط الذي يجمعها وينتظمها في سلك واحد. كان **جوفواغ** يكتب **لكوفييه** عن مشاهداته الغريبة، وحدث أن كتب له عن نوع غريب من الأسماك يشاهده للمرة الأولىٰ حينما فتحه وجد داخله ما يشبه (القصيبات) في الإنسان وكأن هذا الأمر كان كافياً ليعزز استنتاجاته السابقة ويؤكد علىٰ سلف مشترك.

ازداد قلق زملاء **جوفواغ** عليه حيث ظهرت به أثار الهوس الشديد بجمع العينات واللحاق بها. لكن الوقت كان عصيباً علىٰ الجميع، فقد ترك رحيل **نابليون** في ١٧٩٩م إلىٰ فرنسا فراغاً كبيراً خاصة أن الجنود بدأوا يتذمرون من عدم دفع رواتبهم، واقتراب البريطانيين جعل الجميع ينشغلون بأنفسهم إلا **جوفواغ** طبعاً.

استمر في جنون مطاردة حلمه وانغمس أكثر في البحث والتشريح والدراسة ونشر عدداً كبيراً من البحوث مع زملائه. لكن حنينه إلىٰ وطنه غلبه فكتب إلىٰ **كوفييه** يستجديه أن يعيده إلىٰ الحديقة في ١٨٠٠م، وهو نفس العام الذي أذهل فيه **لامارك** طلابه.

كوفييه الذي كانت تصله أخبار **جوفواغ** وأوراقه العلمية بدا عليه القلق مما وصل إليه صاحبه. ظن **كوفييه** أن الحرارة الشديدة علىٰ علاقة بالموضوع، وفرح أنه بقي هناك بعيداً عن تلك الأجواء. استمر **كوفييه** في أبحاثه المعتمدة علىٰ الخصائص والمشاهدات بعيداً عن الحدس والتوقعات، وقد نشر في تلك الفترة كتابه (**دروس في التشريح المقارن**) وهو من جزأين، مما جعل شهرته تطير في آفاق أوروبا كلها. ورغم أنه استاء من أفكار **جوفواغ** كما هو حاله مع **لامارك** إلا أنه يقر له بالفضل في الحفاظ علىٰ تلك المقتنيات الثمينة من الأحافير والهياكل حين رفض تسليمها للبريطانيين وخيَّرهم بين إحراقها كلها أو تركها له (ففرنسا مدينة له كما عبر عن ذلك كوفييه).

وقبل مغادرته مصر أرسل **جوفواغ** إلىٰ **كوفييه** يستجديه أن يحافظ علىٰ سمعته، فقد بدأ الناس يتهمونه في عقله خاصة بعد نظريته التطورية. وفي ١٨٠٢م حاول إقناع زملائه بالنظرية لكن أحداً لم يعره اهتمامًا، فرجع إلىٰ مقتنياته الثمينة ورتبها وأغلق علىٰ أفكاره صندوق عقله.

لم تتحول نظرة **كوفييه لجوفواغ** البارع في جمع العينات إلىٰ نظرة

لفيلسوف أو مفكر استطاع استنتاج علاقة جديدة. ولم يجد **كوفييه** فرصة مواتية أفضل من التي هو فيها لتفنيد أفكار **لامارك** ومزاعمه بأن الزمن كفيل بتغير الكائنات الحية بظهور أعضاء واختفاء أخرىٰ حسب الطبيعة، فقد أزال **كوفييه** الغطاء عن طيور **أبو منجل** ليكتشف أنها لم تتغير، والوضع ذاته مع **القطط الفرعونية** التي لم يختلف تركيبها عن قطط باريس. حرص **كوفييه** علىٰ أن يوقع **لامارك** بنفسه التقرير الرسمي عن هذا الاكتشاف الذي يعارض آراء **لامارك**، ثم عُيّن بعدها كوفييه بروفيسوراً في التشريح المقارن.

أسرَّ **لامارك** إلىٰ بناته وطلابه أن انتصار **كوفييه** كان فارغاً. فأجواء مصر لم تتغير كما أن الحيوانات تحتاج إلىٰ أكثر من ٣٠٠٠ سنة بكثير.

في ١٨٠٣م انشغل الثلاثة في محاضراتهم وبحوثهم، أما **جوفواغ** فقد انصرف إلىٰ التصنيف وتركيب الكائنات الحية التي جمعها وبقيت في نفسه الحسرة بسبب النظر إليه كجامع جيد لعينات لا كفيلسوف مكتشف.

تزوج **جوفواغ** من ابنة سياسي باريسي في ١٨٠٤م وفي العام ذاته تزوج **كوفييه** من أرملة بعد أن رفضته الشابات، عاد **كوفييه** الىٰ التأليف لينجز كتابه عن التشريح المقارن.

تميز **كوفييه** بأسلوبه الجذاب في الطرح حتىٰ أن الناس يشبهونه بأحد الممثلين الباريسيين. في إحدىٰ محاضراته في ١٨٠٥م تحدث

عن أن الأرض مرت بكوارث وأن الإنسان ظهر قريبـًا وهو بهذا يطابق الإنجيل. كان من بين الحضور شاب إيطالي نبيل ساءه توجه **كوفييه** الديني وهو من عرف بتشككه، فلعل حضور **البابا** إلىٰ باريس وعودة النصرانية الكاثوليكية إلىٰ الواجهة خاصة وأن هناك كتاب نشر حديثـًا لأحد الفرنسيين (**عبقرية النصرانية**) ذكر فيه أن الطبيعة سر دفين عن البشر وخاصة الجيولوجيا(!!) فلا يعلم سرها إلا الخالق. في هذا الجو كان علىٰ **كوفييه** أن يوازن بين العلم والطبيعة المتأثرة بالدين، ولو كان هذا الدين محرفـًا إلىٰ درجة أن يمنع من استكشاف الطبيعة!

في ذات العام كان **لامارك** في الستينات من عمره يصارع من أجل توفير لقمة العيش لعائلته حيث كان يرفض التنازل عن قناعاته. فلم يحضر إلىٰ القاعة التي كان يدرس فيها إلا ٧ أشخاص فقط، وإن كان العدد زاد بشكل معقول في السنوات اللاحقة.

عاد **جوفواغ** إلىٰ بحوثه حول أسماك مصر ليساهم مع غيره في مؤلف يتحدث عن مصر وأحيائها. ومع فكرة التطور الحاضرة في ذهنه بدت له الصورة أكثر وضوحـًا. رجع بعدها لمجلدات **كوفييه** ليجمع التراكيب المتجانسة في محاولة الربط بينها وإيجاد عامل مشترك وهدف موحد. لقيت أعماله تأييداً من **نابليون** ومن **كوفييه** الذي دعم الحقائق الماثلة أمامه. ترقىٰ **جوفواغ** إلىٰ بروفيسور علم الحيوان في ١٨٠٩م بعد أن اعتذر عنها **لامارك** لضعفه، وهكذا أخذت أفكاره تنتشر بين الطلاب.

في ١٨١٩م كان نجم **كوفييه** لازال يسطع عالياً في سماء فرنسا بينما **لامارك** كان ينطفئ تدريجياً، فقد أصبح كوفييه (**بارون**) بينما **لامارك** الذي هدَّه المرضُ وكِبرُ السن لازال يحاول تعديل نظريته ويحسنها ويدعمها بالأدلة. أصدر **لامارك** ٧ مجلدات من كتابه تاريخ الحيوانات اللافقارية الطبيعي كان آخرها في ١٨٢٢م بعدما فقد بصره. ومنذ عام ١٨٠٩م وبصر **لامارك** يزداد سوءا حتىٰ وصل إلىٰ فقده كلياً عام ١٨١٨م، وفقد معه القدرة علىٰ إعالة بناته الثلاث وابنه الوحيد الذين يرزحون تحت وطأة الفقر. وبينما كان الناس يزورون **كوفييه** ويحتفون بإنجازاته كانت ابنة **لامارك** الكبرىٰ تقاتل لتدبير لقمة العيش وسداد ديون أبيها. وحين تعود إلىٰ البيت يملي عليها **لامارك** بقية كتابه. في ١٨٢٩م وبعد عشر سنوات من إصابته بالعمىٰ مات **لامارك** ولم يجد بنوه مالاً لتجهيزه للدفن فاضطروا لاقتراض المال من أكاديمية العلوم ثم وضعوه في قبر مؤقت. وبعد فترة نبش قبره وفرقت عظامه في سراديب الموتىٰ!! وبهذا لم يبقَ للعالم الفرنسي **لامارك** إلا ما يمكن أن ينعاه به زميله **كوفييه** الذي حضر إلىٰ منزل أولاده وذهل للحالة التي وصلوا إليها.

في ١٨٣٠م حيث كان **كوفييه** يعد تأبيناً مناسباً **للامارك** بعد أن أخبرنه بناته عن سيرته وبطولته أيام أن كان جندياً، وجراحه وعلمه. كانت الأمور السياسية متقلبة، ومع دوران رحاها دار **كوفييه** الذي كان منشغلاً بها. فالملك الجديد أثار حفيظة الشعب بقراراته، مما عجل

بانقلاب الشعب ضده وخلعه ووضع حاكم جديد.

وإذا كانت المصائب لا تأتي فرادىٰ **فكوفييه** كان يواجه في الحديقة نوعاً آخر من المشاكل. لقد قدم **كوفييه** نظاماً تصنيفياً جديداً للكائنات الحية وكان من بينها: الفقاريات والرخويات، وبين تلك الأقسام لا يوجد أية علاقة. إلىٰ أن ظهرت ورقة علمية من عالمين شابين أثارا فيها زوبعة علمية حيث أكدا أن هناك تماثلاً في التراكيب بين الأعضاء الداخلية للفقاريات والرخويات، فإذا ثنيت رخوياً إلىٰ الخارج فإنك ترىٰ أعضائه الداخلية تشابه تلك التي في الفقاريات، لم يفوت **جوفواغ** الفرصة وأثناء الاجتماع مع باقي العلماء طرح الورقة بقوة في حضور **كوفييه** حيث يرىٰ أنها تثبت صحة نظريته، وقد انتهىٰ عصر الحقائق المجردة وأصبح لزاماً الدخول إلىٰ حقبة الفلسفة في علم الحيوانات. وقف **كوفييه** علىٰ قدميه في لجنة صراع الأقوياء علىٰ الحلبة العلمية وطالب **جوفواغ** بالتراجع عن هذا، لكن قبضة **كوفييه** لم تكن كالسابق، فاليوم هناك الكثير من أتباع **جوفواغ** فضلاً عن الصحفيين والمراسلين الذين استلوا أقلامهم. **كوفييه** الذي أحكم سيطرته طوال تلك المدة ومنع **جوفواغ** من الحديث عن نظريته الفلسفية أصبح في موقف حرج. كانت تلك الشرارة الأولىٰ التي اندلعت فيها نيران المناظرات بينهما. فخلال الشهرين الذين تبعا هذه الحادثة احتدت المناظرات بينهما في قاعة المتحف الوطني للعلوم، وتكاثف الحضور من الصحفيين والعامة الذين زادوا من حرارة

المناظرات. فكلا العالمين أدلىٰ بدلوه وعضد آراءه بالأدلة حتىٰ وصل الأمر **بكوفييه** إلىٰ اتهام **جوفواغ** بالهرطقة وأنه تطوري لا يؤمن بالدين. انسحب **جوفواغ** بعد أن وصلت الأمور إلىٰ هذا الحد ونشر الورقة العلمية كما هي.

ارتد صدىٰ المناظرة العلمية من ألمانيا بعد أن دوّىٰ في اجتماع فرنسا! فالأمر لم يكن عِلمًا بقدر ما كان دينًا تطوريًا طبيعيًا جديداً، وهذا ما جعل صداه عاليًا حتىٰ أن **غوته** وصفه بأنه بركان قد انفجر وأحرق كل شيء معه! ولا أدل من هذا التصريح علىٰ الأبعاد الفلسفية التي حمّلت العلم ما لا يحتمل ليكون دينًا ويحل محل الكنيسة، ظلمات بعضها فوق بعض.

لم يفوت **جوفواغ** الفرصة فتواصل مع جورج ساند George Sand وأونوريه دي بلزاك Honore de Balzac وغيرهم بعد أن علم بدعمهم له، وأصبح أكثر صراحة في أفكاره التطورية (والتي لازالت تسمىٰ التحول Transformism في ذلك الحين). وعمل **كوفييه** بصمت لتجهيز رد صارم علىٰ تلك الادعاءات الفلسفية ليقضي عليها نهائيًا.

في ١٨٣٢م وبعد خمس عشرة سنة من الانقطاع عاد **كوفييه** إلىٰ قاعة المحاضرات ليتحدث عن الحقائق فقط بعيداً عن التكهنات الفلسفية.

العجيب أنه لم يكن كتب حتىٰ وقتها نعيًا **للامارك**، فقد كان يحرر ويعيد كتابة النعي. لكن هذه المناكفات الأخيرة ألقت بظلالها

علىٰ كتابته حيث يدفع **لامارك** ثمن ذلك من نعيه. كتب **كوفييه** الخطاب الذي لمز فيه **لامارك** دون تصريح، حيث أشار فيه إلىٰ أن بعض العلماء الموقرين لم يراعوا الحقائق واعتمدوا علىٰ الحدس والتخيل في أعمالهم، ومثل هذا قد يثير خيال شاعر لكنه علىٰ أرض العلم لا يساوي شيئاً.

كان نقداً لاذعاً بأسلوب مهذب. أعد **كوفييه** الخطاب ولكنه في مايو ١٨٣٢م مات علىٰ فراشه، مات الناعي والمنعي وقُرئ الخطاب بعد وفاة **كوفييه** بستة أشهر.

موت **لامارك** لم يكن عائقاً لنشر فكره، فقد كان أحد طلابه جان بابتيست Jean-Baptiste Bory da Saint-Vinccnt جندياً وعالماً بالنبات قد تم نفيه إلىٰ بوغي Bory بعد واترلو وهام علىٰ وجهه في أوروبا هرباً من السلطة، فكتب عدة أوراق وكتب علمية عن الطبيعة مستقاة من طريقة **لامارك** و**جوفواغ**.

في عام ١٨٢٢م بدأ مشروعه الموسوعي الضخم الذي نشر لاحقاً في ١٧ مجلداً وفيه يرسخ نظاماً مادياً فلسفياً كما رآه **لامارك** ومن بعده **جوفواغ**.

أما في بريطانيا وهي مكان المعبد الذي انطلقت منه جموع الداروينيين وحيث أقام **تشارلز داروين** الهيكل العلمي الديني التطوري؛ فقد انتشرت أفكار **لامارك** وأفكار التطور في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر بين طلاب الطب الشباب، حيث

حولوها من نظريات علمية بحتة إلىٰ أداة للإصلاح السياسي. ففي سكن الطلاب واجتماعاتهم ومجلاتهم الطبية كانت الأفكار تحلق بينهم وتصوغ أفكارهم في المطالبة بالعدالة وحقوق الطبقة العاملة والحد من صلاحيات الكنيسة وصلاحيات بيت اللوردات. وهكذا انتقلت النظرية من جوانبها العلمية إلىٰ جوانب الحياة التي تغلغل فيها الدين الكنسي المُحرف، فإن كان الدين هو سبب الفساد فالحل فيما يخالفه حتىٰ ولو كان خيالات لا تقوم علىٰ أدلة محسوسة أو أرضية صلبة.

وهكذا وجدت فكرة التحول Transformism كما كان يطلق عليها في فرنسا أو Transmutation كما كانت تسمىٰ في بريطانيا: الجو مهيئًا لظهور دين معارض في ثوب علمي.

***

الفصل الخامس:
في البدء كان داروين...

أطلق علىٰ ٢٠٠٩م عام داروين حيث مر علىٰ ولادته ٢٠٠عام و١٥٠ عام علىٰ صدور كتابه الأشهر (**أصل الأنواع**). ولا غرابة فتأثير **داروين** علىٰ العالم الغربي ظاهر جداً. لم يأت **داروين** بفكرة التطور بل سبقه إليها آخرون كما رأينا في الفصول السابقة، لكن الآلية التي افترضها **داروين** هي التي جعلت منه علامة فارقة ومنطلقاً فكرياً أثر ولازال في سائر الحضارة الغربية.

فكيف استطاع **تشارلز داروين** إنشاء معبد يتحنث فيه حتىٰ الملاحدة باسم العلم؟ وهل كان ما عمله اكتشافاً؟ وكيف كان الوضع الفكري والاجتماعي في تلك الفترة؟ وما تأثير الذين قبله ممن ذكرنا؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عليها في هذا الفصل والذي بعده. وغني عن القول أن الحديث عن **داروين** تحديداً ليس كسابقيه، بل سنحتاج إلىٰ مرافقة **داروين** الطفل والشاب والرجل للوصول إلىٰ تصور واضح بعيداً عن مبالغة المادحين ونقمة القادحين. فهو من الشخصيات التي غالوا فيها جداً حتىٰ جعلوه

قديسـًا، في حين أن هناك من قدح فيه حتىٰ جعله شراً محضـًا وشيطانـًا بشريـًا.

ولد **تشارلز داروين** في ١٢ فبراير ١٨٠٩م في **شروزبري** لينضم إلىٰ أخيه الأكبر **إرازموس** وأخواته الأربع **ماريا** و**كارولين** و**سوزان** فيما ولدت أخته **كاترين** بعده بسنة. أبوه **روبرت داروين** الطبيب، وجده **إرازموس داروين** الطبيب المخترع الذي سبق ذكره وصاحب كتاب (**زونوميا**). الفرق بين **إرازموس** وابنه أن الأخير كان منكبـًا علىٰ المال أكثر من اهتمامه بالمجتمع والفكر كأبيه.

وصف **تشارلز** أباه بأنه ضخم الجثة عريض المنكبين قوي الشخصية ولا عجب فقد كانت تلك صفات جده من قبل. أما **تشارلز** فلم يرث من جده سوىٰ تأتأته. فلم تكن صفاته الخلقية جذابة ولم تكن عقليته في طفولته علىٰ الخلاف من ذلك.

لم يكن **داروين** – علىٰ عكس المتوقع – رجلاً يملأ الدنيا ضجيجـًا أو صاحب كاريزما يجذب إليه من يجالسه. بل كان هادئـًا متواضعـًا، قريبـًا من عائلته في طفولته ولم يكن له الكثير من الأصدقاء وكان ذا علاقة حميمة مع عائلته عندما كبر.

توفيت أم **تشارلز** عندما كان في الثامنة، ومع قسوة أبيه لم يجد **داروين** إلا عطف أخواته الأربع وأخيه الأكبر، وهذا ظاهر في مراسلاته معهم. استمرت علاقة **داروين** بالمقربين منه حتىٰ بعد شهرته، فكوب الشاي القديم المهترئ لم يفارقه ولعل ذلك لأنه يذكره بأبيه.

ظن الجميع أن أخا **داروين** الأكبر سيحمل اسم العائلة ويكمل مهنة الطب التي بدأها جده وأبوه خاصة أن **تشارلز** لا تبدو عليه علامات الذكاء فهو (عادي) في نظر من حوله. بل كان راغباً عن الدراسة محباً للتنزه خارج البيت ويقضي وقته في الصيد وملاعبة الكلاب. لقد أحب جمع الأشياء وكان له اهتمام بالطبيعة كما هو حال الشباب في مثل سنه، وقد أكد علىٰ ذلك في مذكراته كنوع من الثناء علىٰ النفس أو التدليل علىٰ اهتماماته العلمية منذ الصغر، فهذا كما يقول يجعل من المرء عالم طبيعيات منظم.

بعد وفاة أمه أُرسل **دراوين** إلىٰ مدرسة داخلية كما هو حال أقرانه. كان الوضع سيئاً داخل المدرسة، فالمعلمون متسلطون والطلبة مشاكسون، وفوق ذلك فإن معايير النظافة سيئة للغاية حتىٰ أنه كتب إلىٰ أخواته متهكماً أنه يغسل قدميه مرة في الأسبوع سواء احتاج لذلك أم لا!

اهتمامات **داروين** العلمية مع أخيه لم تكن في المدرسة بل في المعمل الذي أقاماه في منزلهم، حتىٰ أن الطلاب سموه Gas (**غاز**) لولعه بالتجارب المعملية البدائية. كان الهروب من المدرسة له سحره، فقد جرب ذلك مراراً. وفي مذكراته التي كتبها عن نفسه في أواخر الستين من عمره وأوائل السبعين تذكر مواقف له في طفولته مثل: «**كنت أدعو الإله أن يساعدني، وفي وقتها كنت أنسب الأمر إلىٰ دعائي لا إلىٰ سرعة ركضي**». ولعل في هذه الملاحظة التي ظلت عالقة

في ذهنه بعد كل تلك السنوات إشارة إلىٰ عقلية الرجل وفهمه للدين والإله.

في السادسة عشرة قرر **روبرت داروين** إخراج ابنه من المدرسة وإرساله مع أخيه إلىٰ كلية الطب في أدنبره. فسُمعة **تشارلز داروين** قد سبقته إلىٰ هناك، فهو حفيد **إرازموس داروين** صاحب النظرية والذي ترجمت كتبه إلىٰ عدة لغات، وهو المؤيد للثورات.

وبحلول السنة الثانية **لدراوين** في كلية الطب (١٨٢٧-١٨٢٦م) انتقل أخوه **إرازموس** إلىٰ لندن لإكمال دراسته، فعوَّض وجود البروفسور **روبرت إدموند قرانت** غياب أخيه، فقد احتواه لأنه حفيد **إرازموس** الذي فتح عينيه علىٰ نظرية التطور. و**قرانت** هذا كان من المتأثرين **بجوفواغ** و**إرازموس داروين**.

قرأ **داروين** كتاب جَدّه كما صرح هو بذلك، لكن تأثير **قرانت** عليه كان كبيراً، فقد جعله يتأمل في النظرية أكثر فأكثر، بل إن **داروين** في سنته الثانية في الكلية أصبح من تلاميذه المخلصين في بحوثه عن **المديخ** (polyp) الذي ذاع صيته سابقاً ووجد فيه بعضهم السد والرابط بين الحيوان والنبات وأن هناك تدرجاً وتطوراً بلا قواطع بينهما. بل إن هذا الأسلوب هو ما اتبعه **داروين** في حياته لاحقاً، فداروين كان مطلعاً علىٰ كتاب جَده وكتاب **لامارك**، وبعض أفكاره الرئيسية كانت مستقاة من جده كالبقاء للأصلح والانتخاب الجنسي، لكن التطبيق العملي **لقرانت** فتح عينيه علىٰ عوالم أخرىٰ.

كانت **لروبرت داروين** الأب نظرات **إرازموس** في التطور، لكنه فضل كتمانها، ولم يرد لابنه أن يعلن عن ذلك. ولكن بعد حضور **تشارلز داروين** لعمليتين جراحيتين إحداهما على طفل قبل اكتشاف التخدير (وقد كان قبلها لا يرغب في الطب كحال أبيه) قرر داروين أن الطب لا يناسبه، ولكن كيف يواجه أباه بذلك؟

قضى **داروين** أيامه في إدنبره في الصيد وقراءة الروايات والتنزه مع الأصدقاء وجمع الحشرات والنباتات والحيوانات، لكن اليوم المحتوم لمواجهة أبيه أتى. كانت ردة فعل الأب شديدة على ابنه حتى أنه لازال يتذكرها في سيرته حين قال له: «**إنك عار على نفسك وعائلتك**»! كانت نظرة داروين لأبيه أنه رجل ذو فراسة قوية فلا يكاد يخطئ حكماً على أحد. وعلى هذا يمكن تصور وقع كلماته على ابنه.

وبعد أن أصبح الأمر واقعاً لا مفر منه اقترح **داروين** على ابنه **تشارلز** أن يكون قساً. ومن المفارقات أن الشكوك توارثتها ثلاثة أجيال الجد والأب والحفيد. **فروبرت** كان ملحداً ومع ذلك ساند الكنيسة الأنجليكانية لأنه رأى فيها ضابطاً للعامة، فبدون دين سيصبحون همجيين كما حدث في الثورة الفرنسية. فلا بأس بتداول الأفكار مع النخبة، أما مع العامة وكذلك النساء فالأمر مختلف كما يرى.

التربية الدينية التي كانت عليها أخواته[1] هي **(التوحيدية)** Unitarianisn، والتي تنفي التثليث في بدايتها ثم أصبحت ترىٰ الإنجيل مجرد كتاب يدون الميثولوجيا القديمة. هذه التنشئة بالإضافة إلىٰ توجهات أبيه ومن قبله جده جعلت منه – خاصة في شبابه – ميالاً إلىٰ جعل الطبيعة تحكم نفسها بنفسها، فلا حاجة لإله أو قل لا حاجة لإله مدبر للكون.

لم تكن وظيفة (رجل دين) من طموح **داروين** بالرغم من أنها كانت وظيفة محترمة في وقته بإنجلترا، لكن نظرة أبيه له ومن بعده أخيه الذي ازدرىٰ هذه الوظيفة جعلته يتقبلها علىٰ مضض.

صار علىٰ **داروين** أن يقرأ بعض الكتب الدينية قبل الالتحاق بالكلية، فلم يكن من اهتماماته قبل تلك اللحظة التفكر بأمور الدين.

وحتىٰ بعد قراءته لها قال عن نفسه: «**أنه لابد أن يؤمن بها كما هي**»، وهذا ما نشره في مذكراته التي كتبها لعائلته وليست للنشر، وكأنما يوحي بأن الإيمان أعمىٰ وأن العلم هو الذي جعل من بين يديه نوراً.

في ١٨٢٨م وصل إلىٰ كلية المسيح أو Christ's College في كمبريدج ليحصل علىٰ الشهادة الوحيدة في حياته، وهي البكالوريوس

---

(١) كانت المراسلات بين داروين وأخواته متواصلة حتىٰ بعد سفره لاحقًا. وقد أورد المؤلف في المصدر التالي بعضًا منها وفيها حث بعضهن لداروين علىٰ قراءة الإنجيل:

Norman, A. (n.d.). Charles Darwin: Destroyer of myths, p.10-11

في الآداب، وهي التي تسبق الشهادة الدينية في الكلية. ولازال داروين يحن إلىٰ عائلته، ولكنه وجد ملاذاً في أبناء عمومته **وليام فوكس** و**هنزلي ودجود**. أما **فوكس** فقد شارك **داروين** في جمع الحشرات وتتبع النباتات والديدان وغيرها حتىٰ امتلأت غرفته بأشكال وأنواع مختلفة. فقد كان يراها عملاً يحبه ويبذل جهده ووقته في ترتيب العينات وتصنيفها بشكل دقيق.

وفي كمبريدج التقىٰ **داروين** بالبروفيسور **جون هينزلو** John Henslow عالم النبات الذي كانت محاضراته جزءاً من المنهج الذي يدرسه هناك. أصبح **داروين** من المقربين جداً **لهنزلو** في كمبريدج حيث كان تدريس التاريخ الطبيعي جزءاً من المنهج الديني.

كان **هنزلو** كما وصفه **داروين** رجلاً متديناً ومهذباً ومتواضعاً، ورأىٰ فيه اجتماع العالم الطبيعي مع القس المتدين (العلم والدين). **هنزلو** لم يأل جهداً في حث **داروين** علىٰ الاهتمام بالطبيعة والإضافة إلىٰ معارفه عنها، وقد وجد فيه ما افتقده في أبيه من الدعم مما أشعل حماسه أكثر.

وفي كمبريدج التقىٰ **داروين** بقس آخر جمع بين (الدين والعلم) أيضاً ألا وهو **آدم سيدجويك** Adam Sedgewick وهو أحد المؤسسين لعلم الجيولوجيا الحديث. ولا يخفىٰ أن الجيولوجيا ركيزة أساسية في نظرية التطور ولعل لسبق **سيدجويك** فضل علىٰ **داروين** في تعليمه الجيولوجيا التي أفاد منها لاحقاً.

لم يكن **سيدجويك** ولا **هنزلو** مؤمنَين بحرفية الكتاب المقدس، ولكنهما كما هو حال **وليام بيلي** الذي سبقهما مؤمنان أن في الأرض والطبيعة آيات علىٰ وجود إله. وربما لو تابع **داروين** دراسته الدينية علىٰ يد هذين الرجلين لتغير مسار التاريخ وأصبح التطور علىٰ غير ما نراه الآن (التطور الداروينى الذي يجعل الطبيعة إلهاً بالمعنىٰ العام)، لكن المفارقة الغريبة أن **هنزلو** هو من حرف مسار **داروين** عن متابعة دراسته الدينية. فقد كان **هنزلو** من عشاق الطبيعة، والطبيعة لا يمكن أن تدرس في الكتب فقط. أحب **هنزلو** الرحلة والذهاب لاكتشاف الطبيعة ونقل هذه الرغبة لتلميذه **داروين** المتعلق بعائلته ومحيطه حتىٰ جعله يغير رأيه وتشرئب نفسه للبحث عن المغامرة بعيداً عن دياره.

في ١٨٣١م وصلت داروين رسالة من **هنزلو** تدعوه للذهاب في رحلة السفينة HMS Beagle كمرافق (وليس كعالم طبيعي كما ادعىٰ هو في سيرته!) وذلك مع القبطان **فيتزروي**، فالرحلة ستنطلق بعد أربعة أسابيع وهذه ستكون أكبر مغامرة **لداروين** في حياته.

فكر **داروين** البعيد عن الترحال في الأمر، لأن عليه أن يقضي وقته علىٰ ظهر سفينة مع طاقم من ٤٧ شخصاً وقبطان شاب في السادسة والعشرين، وهذا خيار صعب إلا إذا كانت الجائزة هي إشباع نهمه في التجول في الطبيعة واستكشافها.

ومع قبوله الفكرة وحماسته لها فإن والده كان معارضاً، فهي قد تمنع ابنه من إكمال دراسته كما أنه يعرف طبيعة ابنه التي ربما لا

تتوافق مع السفر لمثل هذه المدد الطويلة علىٰ ظهر سفينة، بالإضافة إلىٰ أن الرحلة لم تكن مجانية حيث أن عليه تحمل تكاليف سفره التي لا يمكنه الحصول عليها إلا عن طريق والده. استنجد **داروين** بعمه **جوزايه ودجود** الذي أقنع أباه بضرورة سفر ابنه، فاقتنع الأب ووجد الابن فرصة لإثبات نفسه لأبيه بعد إخفاقه في الطب.

تأخرت الرحلة بعض الوقت مما جعل **داروين** في مزاج متقلب بين التردد في الذهاب والحماسة له. ولعل هذا القلق من سمات **داروين** التي لم تفارقه بل أثرت علىٰ صحته طوال حياته.

وأخيراً وبعد طول انتظار انطلقت السفينة في ٢٧ ديسمبر ١٨٣١م بعد أن كاد **داروين** أن يضيع الفرصة رغم أنفه أو بسبب أنفه، حيث كان القبطان متشائماً من أنف داروين وقد تفرَّس فيه مالا يحب، وذلك في وقت كانت الفراسة من الأمور المقبولة بين الناس، فحتىٰ رأس **داروين** رأىٰ فيه بعضهم ما ينم عن صفات مختلفة.

كانت السفينة تحمل مع بضائعها المعتادة أدوات علمية، حيث أن من أهدافها استكشاف سواحل الجنوب الشرقي لأمريكا الجنوبية بالإضافة إلىٰ الاستكشاف العلمي بمعناه الأوسع. وهذا أعطىٰ **داروين** فرصة جمع العينات ودراستها.

والقبطان **فيتزروي** أيضاً جمع عينات وهي عبارة عن أربعة عبيد من **تييرا ديل فويقو** (أرض النار Tierra del Fuego) مات أحدهم بسبب الجدري فقاموا بتنصير الثلاثة الباقين ليعودوا إلىٰ قومهم

لاحقًا في تلك القبائل الهمجية لينصّروهم.

مرض **داروين** في الرحلة التي استمرت خمس سنوات بسبب البحر، ولازالت الأعراض تعاوده حتىٰ ينزل منها متجولاً علىٰ الشواطئ واليابسة للاستكشاف. ولحسن حظه أنها كانت تمثل ثلثي الرحلة. ولم تفارق الأعراض الغريبة **داروين** طيلة حياته، فالصداع وآلام المعدة كانا رفيقيه الدائمين.

أصبح القبطان **فيتزروي** و**داروين** صديقين، يتناولان الطعام معًا ويقضيان وقتهما معًا، ولولا حدة **فيتزروي** التي تنتابه أحيانًا لكانت رحلة هادئة مع قبطان مهتم بالعلم والنظام الدقيق ويتمتع بذكاء عالٍ.

وحين حطت قدما **داروين** علىٰ اليابسة لأول مرة أخذته الدهشة وأبدىٰ ذهولاً من هذا السحر الطبيعي، وقد دوّن ذلك في كتابه عن تلك المرحلة. ولابد أن تلك المشاهدات وهذا الانبهار كان له النصيب الأكبر من حديثه علىٰ السفينة حتىٰ أنهم كانوا يطلقون عليه: philos وهو اختصار **للفيلسوف الطبيعي** Natural philosopher وهي التسمية القديمة لما يُعرف اليوم بوصف **عالِم** Scientist.

كان **داروين** كما كان جده معارضًا للرق والعبودية، وهنا تعارض مع **فيتزروي** المؤيد له دائمًا. احتد النقاش بينهما حوله، ولعل **داروين** لم يعلم مباشرة بقرار إلغاء الرق في ١٨٣٣م حينما كانت السفينة تمخر عباب البحر وترسو قريبًا من الجزر التي يُجلب منها العبيد. وقف **داروين** علىٰ رجل إيرلندي يحاول بيع عوائل الرقيق

وتساءل: «**كيف لا يمكن عمل شيء حيال تفريق هؤلاء العائلات من نساء وأطفال**»! وكتب في موضع آخر أنه كان مع أحد العبيد ولكن فارق اللغة بينهما جعله يستخدم الإشارة ويرفع يده ويخفضها، فوضع المسكين يده اتقاء ضرب **داروين**. أثرت هذه الحادثة في نفسه إذ كيف ظن ذلك الرقيق أنه سيعتدي عليه لولا أنه تربىٰ علىٰ الذل والخنوع والضرب، والعجب كل العجب أن **داروين** نفسه هو الذي سيصنف البشر بعد ذلك بسنوات بناء علىٰ سلّم تطوري فرّق به بين السود والبيض في كتابه (أصل الإنسان) واعتبر الصراع بينهما حتمياً (أي بين البيض والقوقازيين الأعلىٰ تطوراً وبين الزنوج والسكان الأصليين في القارات الذين هم أقرب لأشباه البشر والغوريلا كما وصفهم!!)

كانت ملاحظات **داروين** الجيولوجية من خبراته السابقة مع **سيدجويك** ومن بعده الكتاب الذي أهداه إياه **فيتزروي** (**مبادئ الجيولوجيا – الجزء الأول**) لمؤلفه **لايل** (lyell). كانت أفكار **لايل** تخالف معلمي **داروين سيدجويك** وكذلك **هنزلو**. أما **سيدجويك** و**لايل** فهما بمثابة مؤسسي الجيولوجيا الحديثة إذا صح التعبير. لكن الثلاثة متفقون علىٰ عدم صحة كلام **لامارك وإرازموس داروين**، ويعترضون علىٰ أفكار التطور التي طرحوها رغم أن الأولين قسيسين **أنجليكيين**، أما **لايل** فقد كان ربوبياً.

رأىٰ **سيدجويك** أن الأحافير بدأت في العصر الكامبري بالتدريج في مراحل محددة متدرجة إلىٰ أن وصلت إلىٰ الإنسان بمراحل تتواءم

مع خلق الأرض وتطابق ما جاء في سفر التكوين، بينما اختلف **لايل** معه في أن العلم يجب أن يبقىٰ بعيداً عن الإنجيل، فماذا لو لم يكن هناك تدرج وأن الاكتشافات اللاحقة ستثبت العشوائية وأن هناك أنواعاً تظهر وتختفي طبقاً لتحولات الجيولوجيا التي ليس وراءها غاية ولا هدف. فكل شيء يسير وفق قوانين الطبيعة، حيث لا يوجد نقطة بداية أو نهاية، وهذه النظرة اختارها **داروين** وفضلها علىٰ نظرة **سيدجويك** وغيره.

لم ينقطع التواصل مع بريطانيا عن طريق البريد، ففي أواخر عام ١٨٣٢م استُقبل الجزء الثاني من كتاب **لايل** الذي افتتحه بعرض نظرية **لامارك** والمرور عليها، وقد أدرج نماذج مما افترضته النظرية بطريقة ساخرة. ولعل هذا ما جعل **داروين** يشعر بأنه تائه بين نظرية **لايل** التي تجعل التطور الأعمىٰ ممكناً وبين رأيه الرافض لها.

يظن أكثر الناس أن داروين لم تخطر له فكرة التطور إلا بعد وصوله إلىٰ جزر **غالاباغوس** ولكن المتأمل يلحظ غير ذلك. **فلايل** مهد الطريق **لداروين** لتأسيس نظريته و**داروين** اختار سلوكه.

ومن المفارقات الغريبة هنا أن **فيتزروي** المؤيد للرق كان يرىٰ البشر سواسية مهما بدت عليهم مظاهر الجهل، ومهما اختلفت ألوانهم وعاداتهم منطلقاً بذلك من دينه النصراني الذي يؤمن بأن البشر من نسل **آدم** و**حواء**. أما **داروين** فلم يكن يرىٰ حاجة إلىٰ النصرانية، إلا أنه اصطدم برؤية سكان الجزر الأصليين وشاهد بأم عينه مقدار

التخلف الذي يعيشونه. فكانت صدمة **لداروين** الذي لم يشاهد مثل هؤلاء عندما وصلوا إلىٰ **تييرا ديل فيقو** (أرض النار Tierra del Fuego) وشاهد تلك القبائل بتصرفاتهم الغريبة المختلفة عما عهده طوال حياته ببريطانيا، وأطلق **داروين** عليهم أوصافًا بشعة، فهم أكثر همجية من الحيوانات المستأنسة، وأن من الصعب تخيل مثل هذه الكائنات تشاركنا عالمنا.

ولاحقًا لما اكتملت نظريته عن التطور أخذ يتذكر هؤلاء ويعدهم في ميزان التطور أرفع من القردة وأقل من الإنسان الإنجليزي كما أشرنا منذ قليل، والذي بلغ في نظره قمة التطور!! فسكان أستراليا وأفريقيا الأصليين هم نوع وسطي لم يكتمل تطوره![1].

النظرتان المتعارضتان بين نظرته للرق ونظرته لهؤلاء البشر

---

(١) يُلاحظ هنا النظرة القاصرة والسطحية جدا من داروين إلىٰ تطور الإنسان وتصنيف أجناس كاملة إلىٰ ما هو أقرب للحيوانات، والتي هي في الحقيقة كانت نتاجا للتفوق الأوروبي والإنجليزي في ذلك الوقت كدولة استعمارية ومحل الدراسات والعلم، والسؤال: ماذا لو عاش داروين قبل ذلك في العصور الوسطىٰ لأوروبا وتفوق المسلمين؟ ماذا لو كان قد عاين التخلف والهمجية المتفشية في أوروبا آنذاك في مقابل التقدم الإسلامي العلمي والحضاري في كل المجالات باعتراف المؤرخين والمنصفين الغربيين أنفسهم؟! والعجيب أنه كان من المسلمين رحالة جابوا الكثير من أرجاء العالم وشاهدوا نفس ما شاهده داروين من قبائل بسيطة أو متخلفة: ولكنهم أبداً لم يفكروا فيهم كأجناس أقرب للحيوانات منهم للإنسان أو يفكروا في تفوق جنس علىٰ آخر في خلقته لمجرد انتمائه لبلد أو لون.

استمرت تلازمه، بل ورَّثها إلىٰ أتباعه كجزء لا يتجزأ من التطور.

أنزلت سفينة **البيغل** الثلاثة الذين أخذتهم لتنصيرهم بعد أن علَّموهم أمور النصرانية وهذبوا طرق حياتهم، كما نزل معهم علىٰ الشاطئ المُنصر **ريتشارد** بغرض تنصير قبائلهم، ولكن بعد أسابيع حين عادت السفينة جاءهم **ريتشارد** يصرخ طلباً للنجدة حيث رجع الثلاثة إلىٰ عاداتهم الجاهلية.

مسار الرحلة جعل **فيتزروي** يؤجل العودة إلىٰ **تيرا دي فويجو** حتىٰ الصيف القادم بعد أن رجع **ريتشارد** إلىٰ السفينة.

عندما كان ينزل **داروين** إلىٰ الشواطئ الإسبانية ويرىٰ بعض السكان الأصليين فإنهم يبدون تعجباً وانبهاراً بما يحمله هذا الرجل الغريب بما يشبه السحر، فالبوصلة والكبريت يمثلان نوعاً من الشعوذة غير المفهومة. بل إن عائلات تجتمع عنده ليرونه وهو يشعل عود ثقاب. بل كان استغرابهم يصل إلىٰ الحد الذي يفوق الوصف حين يرونه يغسل وجهه كل صباح!! لم يتوقف **داروين** عن جمع العينات من حشرات ونباتات وطيور وحيوانات ليشحنها إلىٰ **هنزلو**، ولكنهم بعد عودة السفينة إلىٰ Tera de Fueges وجدوا **جيمي** (أحد الثلاثة) مع زوجه وقد تغير هندامه وتبدلت أحواله بعد أن انقلب عليه صاحباه وجردوه من كل شيء إلا زوجه وعادوا إلىٰ حياة الهمجية مع القبيلة.

لابد أن هذا عزز قناعات **داروين** بالتطور في الجنس البشري،

وبعد مغادرتهم بقليل وصلت البشائر إلىٰ **داروين** حيث بدأت العينات التي أرسلها إلىٰ **هنزلو** تحدث حراكًا علميًا وكثر الكلام حولها وبدأ نجم **داروين** يضيء.

طوال الرحلة كان **داروين** يرقب الحياة الحيوانية والنباتية بعيني **لايل** وفهمه للجيولوجيا. تلك النظرة التي تعززت عند وصولهم إلىٰ جزر **غالاباغوس**. حيث كانت طيور **الحساسين** في كل جزيرة مختلفة عن الجزر الأخرىٰ، بل حتىٰ **السلاحف** تحمل أصدافًا مختلفة يعرفها السكان المحليين. لم يمتلك **داروين** الدقة الكافية للتأمل في الطيور وسبب تنوعها بالرغم من أن الجزر لا يفصل بعضها عن البعض إلا ٢٠ ميلاً، فقد كان مشغولاً بجمع العينات، والأسابيع القليلة التي قضاها لم تتح له فرصة التأمل.

تابعت السفينة رحلتها إلىٰ **تاهيتي** حيث كان السكان المحليون أكثر تحضراً من سكان **فويجو** بسبب دخولهم النصرانية وجهود المُنصرين. واصلت السفينة مسارها إلىٰ **نيوزيلندا** حيث ظهر سكانها المحليون في قمة الهمجية والتخلف، وكسابقيهم؛ فقد عزا مقدار التحضر الضئيل إلىٰ جهود المُنصرين.

داروين طبعًا لم يكن متدينًا حين وضع هذه الملاحظات، ولكن كحال **الربوبيين** فهو يرىٰ في الدين مُهذبًا للأخلاق كما هو حال أبيه وجدّه خاصة للعامة والشعوب البدائية. وبعد **نيوزيلندا** وصلت السفينة إلىٰ أستراليا حيث تعيش القبائل المحلية وسط البيض، وهذا

جعل **داروين** معنياً بانقراضهم كما هو الحال بالنسبة للكنغر(!!)

وبعد خمس سنوات إلا قليلاً وصلت سفينة **البيغل** Beagle إلىٰ أرض الوطن، وعاد **داروين** ليجد نفسه ذا مكانة عالية بين العلماء. لقد صنع له **سيدجويك** و**هنزلو** اسماً.

* * *

إصدارات مركز دلائل ...

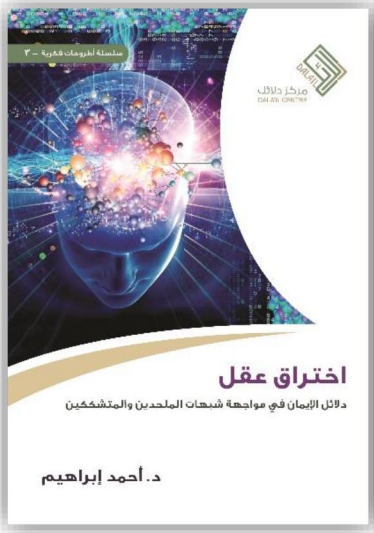

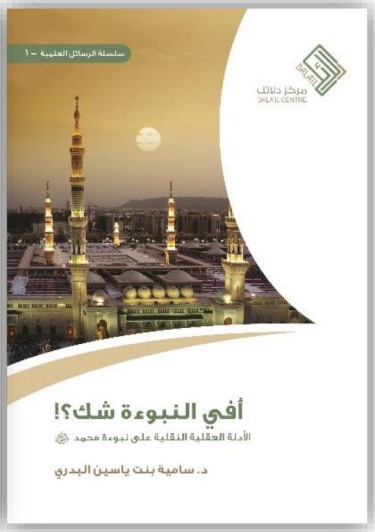

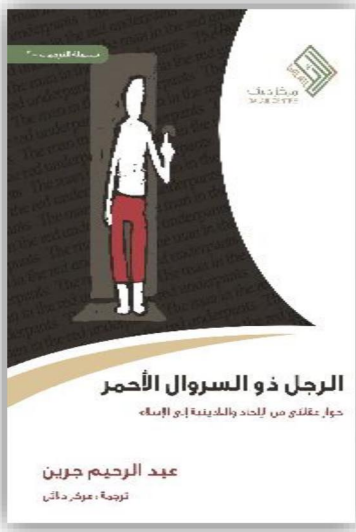
الرجل ذو السروال الأحمر
حوار عقلاني من الإلحاد واللادينية إلى الإسلام
عبد الرحيم جرين
ترجمة : عمر دائق

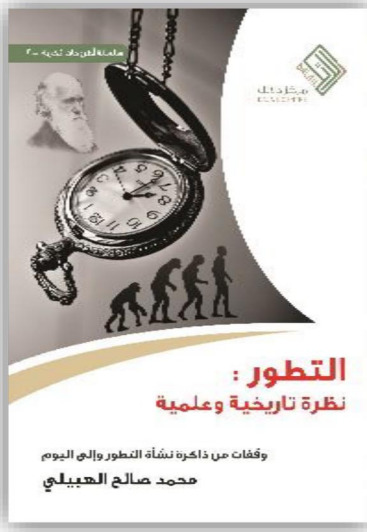
التطور :
نظرة تاريخية وعلمية
وقفات من ذاكرة نشأة التطور وإلى اليوم
محمد صالح العبيلي

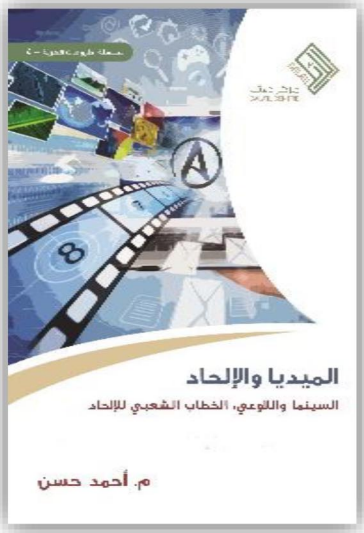
الميديا والإلحاد
السينما واللاوعي، الخطاب الشعبي للإلحاد
م. أحمد حسن

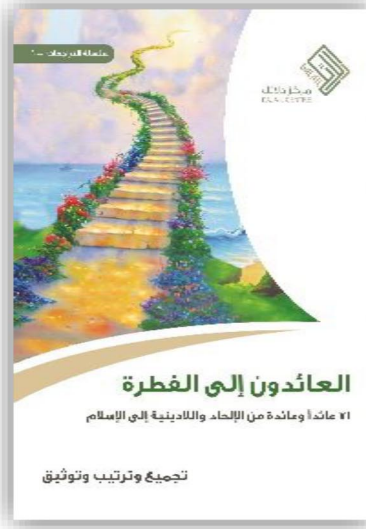
العائدون إلى الفطرة
٢١ عائداً وعائدة من الإلحاد واللادينية إلى الإسلام
تجميع وترتيب وتوثيق

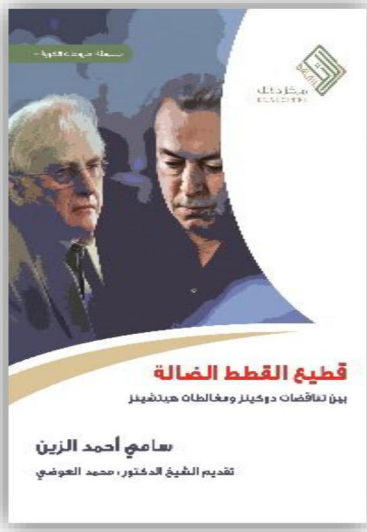
قطيع القطط الضالة
بين تناقضات دوكينز ومغالطات هيدشيلر
سامي أحمد الزين
تقديم الشيخ الدكتور، محمد العوضي

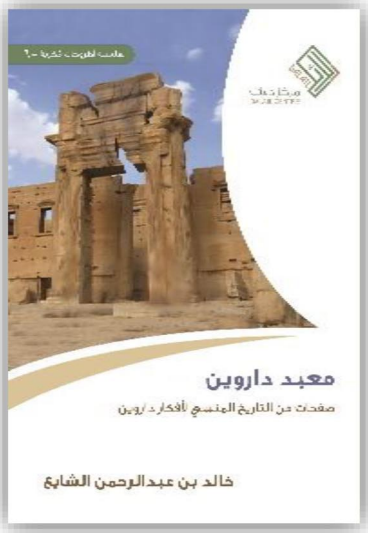
معبد داروين
صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين
خالد بن عبدالرحمن الشايع

مؤشرات التطرف لدى الشباب
دراسة ميدانية ، اقتصادية واجتماعية ونفسية وفكرية
د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الهليل

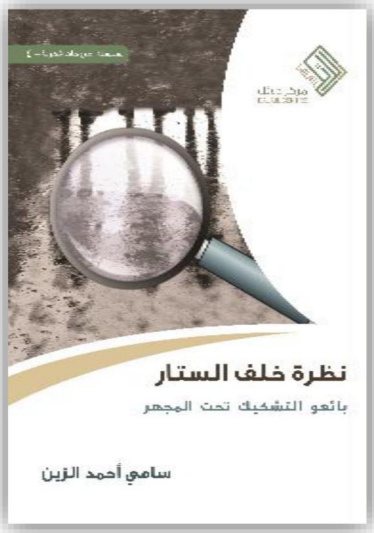
نظرة خلف الستار
بانعو التشكيك تحت المجهر
سامي أحمد الزين

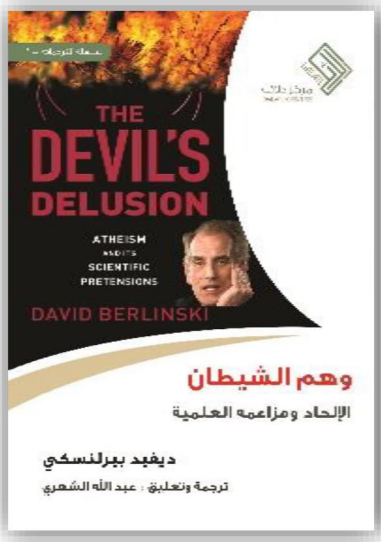

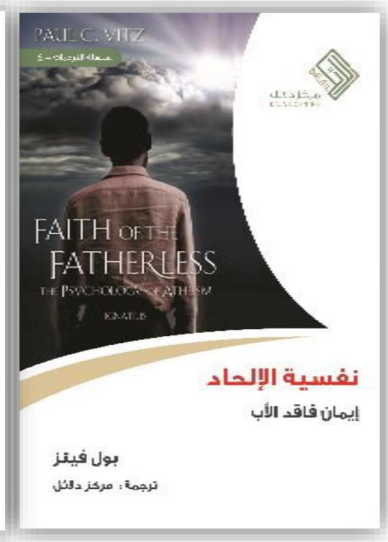

الموقع الرسمي : Dalailcentre.com
للتواصل : إيميل Dalailcentre@gmail.com
جوال ٠٠٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠
لطلب وشحن الكتب : دار مورق Dar_moreq
جوال ٠٠٩٦٦٥٠٧٢٠٤١٧١

معبد داروين

" طبعًا داروين لم يكن متديِّنًا حين وَضع هذه الملاحظات، ولكن كحال الربوبيين يرى في الدِّين مهذّبًا للأخلاق كما هو حال أبيه خاصةً للعامة والشعوب البدائية. وبعد نيوزلندا وصلت السفينة إلى أستراليا حيث تعيش القبائل المحليّة وسط البيض، وهذا جعل داروين معنيًا بانقراضهم كما هو الحال بالنسبة للكنغر (!!)

وبعد خمس سنوات إلا قليلاً وصلت سفينة Beagle إلى أرض الوطن، وعاد داروين ليجد نفسه ذو مكانة عالية بين العلماء "

خالد بن عبدالرحمن الشايع

جوال : ٠٥٣٩١٥٠٣٤٠ E-Mail:dalailcentre@gmail.com
Dalailcentre/